

الْجَبَارُ

الْمُهَذَّبُ بْنُ تَوَمَرٍ

وَبَدَايَةُ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ

تَأْلِيفُ

أَبِي بَكْرٍ عَلِيِّ الصَّنَهَاجِيِّ

الْمُكَنَّى بِالْبَيْضَقِ

مكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن زهر

تاريخ الدخول 09 07 1956

رقم الجرد 18662

القسم 324.02

دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط

1971

مقدمة

من بين الكتب التاريخية الثقلية التي ألقت في بداية العصر الموحدي وسلت من التلف الكلي كتاب من تأليف أبي بكر بن علي الصنهاجي الكُنَّا باليَدين سناه ناشره الأول (أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين).

وهو كتاب قيم جداً من الوجهة التاريخية، ترجع أهميته إلى كونه مؤلفه شارك بنفسه في صنع الوقائع التي وصفها، لأنه أحد تلاميذ الفقيه محمد بن تومرت الهرغي مهدي الموحدين، ورفيق من رفقاء خلفه المقرئ عبد المومن بن علي الكومي باني دولتهم، وإلى كونه الأخبار التي تضمنها فيها من الدقة والتفصيل والسذاجة أيضاً ما يكشف جوانب غامضة من نفسية محمد بن تومرت وسلوك أنصاره وحقبة دعوته، ويُلقي أضواءً على تنظيمات حركته ومراحل الصراع العنيف الذي اقترن في المغرب برجوعه إليه من رحلته المشرقية وانتهى بالتضاء على دولة المرابطين.

ويظهر أن الكتاب عرف في الأول رواجاً في الوسط الثقافي ، فقد اعتمده مؤرخان اثنان فيما وقفت عليه وجملاه من مراجعها فيما ألفاه ، أحدهما ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان ، والثاني ابن عذاري صاحب البيان المغرب ، ولكنه اختفا بعد ذلك ، فلم يعمد أحد من المؤرخين ينقل عنه أو يتحدث بشيء عن مؤلفه ، وإنني لتأخيل المراحل التي قطعها هذا المؤلف منذ تأليفه في منتصف القرن السادس الهجري إلى أن نشرته المطبعة في منتصف القرن الرابع عشر ، فأستور أن البيذق كتب منه نسخة واحدة أهداها إلى أحد خلفاء الدولة الموحدية وأودعها خزانة من خزائهم الواسعة فاستنفاد منها من كان يمكنه الوصول إليها قبل أن تنتهى بين آلاف من كتبها ودواوينها ، ثم جاءت فترة الفتن التي قامت بين الموحدين أنفسهم وبين الخارجين عليهم إثر انكسار جيوشهم في غزوة العقاب وما تلاها من خراب قصورهم ونهب ذخائرهم وتبدد أغنيائهم ومنها مجاميع كتبهم شذر مذر ، فكان حظ كتاب البيذق حظها : تبدل بالاستقرار في خزائن قصور الخلفاء بالخطر الاستقرار بأحد حصون الرؤساء بالجيال . فنالت منه الرطوبة

وعانت فيه الأرضة فساداً ، فاختل نظامه وتمزقت أوصاله إلى أن اهتدأ إليه ناسخ من الأرياف في أوائل القرن الثامن الهجري (1) فأعاد كتابة ما بقي منه في مجموع انتقل بطريقة من الطرق فيما بعد إلى مكتبة ديرسان لورانثو بمدينة الأسكوريال الأسبانية فحفظ في إضارة من أضابيرها لم توضع له جُرَازة ولا يُعرف له محتوى أو مدلول حتى عثر عليه المستعرب العلامة ليفي روفانسال أثناء أبحاثه السيلوكرافية بتلك المكتبة سنة 1924 فاهتدأ الكتاب بعد ضلال طويل وقرأ النور بعدما حجب ظلام كثيف زهاء ثمانية قرون .

وخلال الأعوام التالية اعتنا المستعرب المذكور بالكتاب وبما وجد معه من وثائق أخرا ترجع إلى العصر الموحدي (2) فترجمها كلها إلى اللغة الفرنسية ، ثم قدم النصوص الأصلية والترجمة الفرنسية إلى دار كونتير بباريس فنشرتها في كتاب واحد سنة 1928 ومنذ ذلك الوقت بدأ المؤرخون المعاصرون ينقلون منه ويستشهدون بنصونه ، كما بدأ الاهتمام بشخص مؤلفه ومحاولة

(1) عام 714 بالاضبط . واسم الناسخ إبراهيم بن موسى بن محمد الهرغي .

(2) الوثائق الأخرى هي عدد من الرسائل الموحدية والمقتبس من كتاب الانساب في معرفة الأصحاب للبيذق نفسه .

التعريف عليه والتعريف به .

وبخصوص هذه النقطة الأخيرة ينبغي الإشارة إلى المقال القيم الذي كتبه عن البيدق الأستاذ الوزير السيد محمد الفاسي ضمن سلسلة المقالات المهمة التي كتبها قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها عن تاريخ الأدب المغربي، إذ هي المحاولة الأولى من نوعها للتعريف برجل يظهر من ثنايا حديثه وفصول كتابه الواصلين إلينا (3) أنه أحد الأقطاب الذين قامت على سواعدهم الدعوة الموحدية وأغفله مع ذلك الزمان .

والآن وقد مر على نشر الكتاب لأول مرة نحو نصف قرن وقبل تداوله وأصبح حكمه حكم الكتب الخطية طلبت مني دار المنصور للطباعة والوراقة أن أقوم بتحقيقه استعداداً منها لطبعه وجعله قريب التناول من أيدي المثقفين، فلبيت طلبها علماً بقيمة نشر هذا الأثر من آثارنا العلمية وأشباهه ونظائره . وقد اعتمدت في تحقيقي للكتاب - أو للنسخة الباقية منه على الأصح - على النص المنشور بباريس ، لأنه لم يقدر لي أن

(3) الكتاب الثاني هو المقتبس من كتاب الانساب المثار إليه أنفا .

أطلع على الأصل الخطي المحفوظ بالاسكوريال ، وهو نص لا يخلو من أخطاء رسمية ولفوية ونحوية بعضها من عمل المؤلف نفسه وبعضها من عمل الناسخ أو الناشر ، فأخرجت منه نسخة هي أدنا إلى الصحة ، ثم قمت بالتعليق على ما اعتقدت أنه في حاجة إلى تعليق من جملة وألفاظه ، لاسيما الكلمات وال عبارات العامية الواردة فيه بكثرة والدالة على أن لغة التخاطب بين عرب المغرب لم تتطور من العصر الموحدى إلى الآن كثيراً ، معتمداً على فطنة القارئ ونشاط الباحث في الباقي ، مجتنباً الخشو الذي يعتمد إليه بعض الباحثين فيصرون به حواشيهم وتعاليمهم أحياناً أكبر من متن الكتاب الذي يحققونه .

وعسا أن تسمح الأيام بالعثور على نسخة كاملة من كتاب البيدق تتيح لي أو لمن يأتي من بعدى أن يعيد طبعه ويقول عنه وعن مؤلفه ما لم أقول ، فإن ما ظهر في هذه السنين الأخيرة من تراثنا العلمي والأدبي المقبور يجعلنا أدنا إلى الشقة والتفاوت بالمعشور على باقيه في زمن لن يطول .

باب نذكر فيه

دخول سيدنا المعصوم رضي الله عنه تونس

..... (I) وكان طلبتها يأتون إلى الامام رضي الله عنه يأخذون عنه العلم، فلما كان بعد خمسة عشر يوماً صلاة الظهر يوم الجمعة، فلما صليت الفريضة صلاة على الجنائز، فنظر الامام إلى جنازة من وراء الناس فقال لهم لِمَ لا تصلون على هذه الجنازة؟ قالوا له هو يهودي وكان يصلي، فقال لهم رضي الله عنه أفبكم من يشهد له بالصلاة؟ فقال الناس نعم من كل جانب ومكان، فقال لهم قد شهدتم له بالايمان، ثم أمر من يقيم الصفوف وصلاة عليه ونحن من ورائه، فلما صلاة دعا بالفقهاء ووبخهم وعرفهم بالسنة وبين لهم الكتاب العزيز، فقالوا له بعد أن عرفوا الحق جهلنا يافقيه، فكانوا يأخذون

(I) من هنا يبدأ الطرف الباقي من الكتاب، والمؤلف يتحدث هنا عن مقام محمد بن تومرت بتونس خلال رجوعه إلى وطنه من رحلته الشرقية، وتكاد تجمع الروايات التاريخية على أن ذلك الرجوع كان في بداية عام 510 هـ أو العامين اللذين بعده، وقد ركب ابن تومرت في رجوعه إلى المغرب سفينة من الاسكندرية بعد ما تفاء واليها منها ومن بطرابلس والمهدية قبل أن يدخل تونس ويواصل منها السفر غرباً، وكان كلما دخل مدينة نصب نفسه فيها للامس بالمعروف والهدى عن المنكر فيتضايق منه الولاة وينفونه أو يؤذونه بسبب ذلك، وذكر عبد الواحد المراكشي في المعجب انه فعل ذلك أيضاً في السفينة التي ركبها من الاسكندرية حتى تضايق منه رعاياها والقوم في البحر، ولا شك أن البيهقي تحدث عن كل ذلك في الأوراق الاولى المفقودة من كتابه لانه كان رفيقاً له في السفر، كما تحدث عن أصله ونشأته ومثله ورحلته من وطنه وبداية معرفته.

عنه العلم أياماً عديدة ، فلما كان بعض الأيام أمرنا بالأخذ على أنفسنا ، وقال لنا نتوجه إن شاء الله نحو الغرب ، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كما كنا أول القدوم : سيدنا المعصوم رضي الله عنه ، ويوسف الدكالي ، والحاج عبد الرحمان ، وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبليذق ، فلم نزل نجده السير حتى وصلنا قسنطينة ونحن في أمن من الله ، ما رأينا إلا الخير .

باب نذكر فيه

دخول سيدنا المعصوم رضي الله عنه قسنطينة

وذلك أنه لما دخل سيدنا المعصوم قسنطينة نزل بها عند الفقيه عبد الرحمان الميلي ، ويحيى بن القاسم ، وعبد العزيز بن محمد ، وكان أميرها ابن سبع بن العزيز ، وكان قاضيها قاسم بن عبد الرحمان ، وكان الطلبة الذين بها يأتون المعصوم يقرأون عليه ، فلما كان في بعض الأيام سمع صوت مناد وهو ينادى هاذا جزء الحلال ، فقال المعصوم : ما هذا النداء ؟ فقالوا له هاذا حلال (2) يأخذ أموال الناس ويدخل عليهم ليقتلهم فقال ليس عليه سياط ، إنما عليه القتل ، ولكن يجزيه ذلك الضرب ، فبينما هم كذلك إذ سمع منادياً ينادى هاذا جزء أهل السرقة ، فقال يا قوم ، تركتم الشرع ، إنما يجب عليه قطع اليد ، فقالوا له يافقيه ، فما نصنع به ؟ فقال لهم إنما هاذا الضرب يقوم له مقام قطع اليد بجهلكم ، لأنه لا يجوز جمع حدّين في ذنب واحد ، ثم قال للسارق تب ، فقال يافقيه أنا تائب لله تعالى بقلب صادق ، فتاب على يد الامام المعصوم رضي الله عنه ، وعلمه من شروط التوبة وبينها له ، ثم قال لنا الامام المعصوم رضي الله عنه لتأخذوا على أنفسكم غداً إن شاء الله ، فلما أصبح خرجنا من قسنطينة ، فلم نزل نجده السير حتى دخلنا بجاية وبالله التوفيق .

(2) الحلال في عربية المغرب القديمة هو السارق .

باب نذكر فيه

دخول سيدنا المعصوم رضي الله عنه بجاية

وذلك أن المعصوم رضي الله عنه لما دخل بجاية (3) نزل بمسجد الريحانة ، وكان ينهئ الناس عن الاقتراق الزرارية وعماثم الجاهلية ولباس الفتوحيات (4) ويقول لا تتزيّنوا بزّي النساء ، لأنه حرام ، وكان يبيع الطيب للرجال والنساء ، وكان الفقهاء يأتونه الذين منهم محرز ، وإبراهيم الزبّودي ، وإبراهيم بن محمد الميلي ، ويوسف بن الجزيري الجراوي ، وعبد الرحمان بن الحاج الصنهاجي القاضي ، وذلك في شهر رمضان المعظم ، فلما كان يوم الفطر اختلط الرجال والنساء في الشريعة (5) ، فلما رآهم الامام رضي الله عنه دخل فيهم بالعصا يميناً وشمالاً حتى بدّدهم ، فلما رآه ابن العزيز يفعل ذلك قال له يافقيه لا تأمر السوقة بالمعروف وهم لا يعرفونه ، فاني أخاف أن يأمرؤا فيك وتهلكهم ، لا يستوى حر كريم مع شيطان رجيم . فسار الامام رضي الله عنه الى ملالة (6) فلما رأوه قال له بنو العزيز يافقيه نريد أن تبني لك مسجداً هنا ، فقال لهم رضي الله عنه إن شئتم ، فبنوا له مسجداً ، وأقبل الطلبة يصلون إليه من كل مكان ، فلما كان في بعض الأيام دخل المدينة حتى وصل باب البحر فأهرق به الخمر ، فقال المؤمن تمار والكافر خمّار ، فرما

(3) ذكر ابن أبي ذرع في كتابه الأنيس المطرب يروض القُرطاس أن وصول محمد بن تومرت الى بجاية كان في أول ربيع الأول سنة 510 (الجمعة 14 يوليوز 1116 م) ويجعل ابن القطان وابن خلكان وصوله إليها في سنة 511 أما ابن خلدون فيجعل ذلك في سنة 512 هـ .
(4) الاقتراق جمع قرق : شبه الخف ، ما زالت هاذة الكلمة مستعملة في المغرب الأوسط ، والفتوحيات جمع فتوحية لباس يشبه ما نسميه نحن في فاس بالمنصورية والفرجية .

(5) مصلا العيدين .

(6) قرية بظاهر بجاية كانت تسمى بالبربرية تاملت .

فيه اليد عبيد سبيع ، وقالوا له من أمرك بالحسبة ؟ فقال : الله ورسوله . ثم رجع إلى المسجد المذكور ، وهذا المسجد مبني عند دار يريجين بن عمر المكنتا أبا محمد الذي سماه المعصوم رضي الله عنه عبد الواحد (7) فكان الطلبة يقرأون العلم عليه ، فاذا فرغوا جلس بين الطرق تحت خروب العجوز ، وهو أبداً ينظر إلى الطريق ويحرك شفثيه بالذكر ، وذلك الموضع يعرف بخروب العجوز ، فبينما هو ذات يوم قاعد إذ سمعناه يقول : الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأفدأ أمره ، وأقبل نحو المسجد وركع ركعتين ، ثم قال : الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غداً طالب طوباً لمن عرفه وويل لمن أنكره ، فلما سمع الناس غداً يصلكم طالب حاروا في أمره .

وذلك أن الحق تبارك وتعالى أزعج أمير المؤمنين الخليفة عبد المؤمن ابن علي رضي الله عنه من بلده نحو المشرق ، فجده حتى وصل بجاية هو وعمه يعلو ، وذلك أنه لما خرج الخليفة أمير المؤمنين مع عمه رضي الله عنهما جدا حتى وصلا متبيجة (8) فنزل بها عند الفقيه أبي زكرياء وأخيه صنغ فأقاما بها أياماً حتى أن الله تعالى أراا منامة للخليفة رضي الله عنه ، وذلك أنه رآا صحيفة من طعام على ركبتيه يأكل الناس منها كافة ، فلما أصبح قال لعمه ياعنم رأيت كذا وكذا ، فقال له أكنتم هاذو الرؤيا ، وأرتحلا حتى وصلا لبني زلدوى فقرأا المنامة بعينها إلا أن الصحيفة على رأسه والناس أجمع يأكلون منها ، فأعلم أيضاً عمه ، فلما أصبح أقبلأ يجدان السيز حتى نزلا بجاية ونزلا بها في مسجد الريحانة ، فلما صليا أصبح سمعا الناس يقولون سيروا بنا نحو الفقيه فقال لهم الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه : ومن الفقيه ؟ قالوا له السوسي ، هو عالم المشرق والمغرب ، وما مثله إنسان ، فقال لعمه ياعنم سر بنا نحوه إن شاء الله ، ولما وصل الخليفة رضي الله عنه بجاية وجن عليه الليل

(7) هو عبد الواحد المعروف عند الموحدين بالشرقي أحد أصحاب المهدي المقربين إليه .

(8) اسم قبيلة بربرية سمي بها السهل الواقع خلف مدينة الجزائر حيث مدينة البلدة الحالية وقد كانت به قرية آملية تدعى متيجة أيضاً .

قرأ حزبه وصلاً وردة في تلك الليلة ، ثم نام فراًا الرؤيا بعينها إلا أن الناس يبايعونه ، فلما أفاق أعلم عمه بها ، فقال له أكنتم هاذو الأمر فانه رأيت أمك وهي بك حامل كأن النار تخرج منها وتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، فقال لها المعبر بتلمسان لا بد لهاذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، ولكن أكنتم هاذو الأمر ولا تعرف به إنساناً ، وكذلك قال لي أبوك علي ، ولقد رأيت في أمرك موعظة ، كنا نحصد الزرع وأملك بك حامل ، فجاءت للفدان واضطجعت نائمة ، فأقبل بندان من نحل فنزلا على أمك ، فلما خلقت أنت أتت أمك الفدان فلقطت السنبل وتركتك نائماً ، فنزل أيضاً عليك النحل أكثر مما كان نزل على أمك وأنت في جوفها ، ثم قام النحل عنك وافترق فرقتين واحدة للمشرق وأخرأ للمغرب ، فقال علي الله أكبر ، هاذو هو الذي قال الفقيه بتلمسان ، فلما رجعنا من الفدان قال لأملك احفظيه فانه لا بد له من الأمر الذي ذكر الفقيه المفسر ، فكانوا ينتظرون منه حتى بلغ مبلغ الرجال ، ونشأ على الحفظ والقراءة ، وكان رضي الله عنه كثير الفهم يفهم الناس مسألة ويفهم هو عشرة ، فلما سمع رضي الله عنه مقالة عمه قال له ياعم أخرج مع الناس أرى هاذو الفقيه السوسي ، وأقول له هاذو المنامات وهذا الأمر واسأله في أحوال الديانات والواجبات ، فاني أسمع الناس يذكرون مغربات أقواله وصلاح دينه وفهمه للكتاب والسنة ، فقال له سر إليه وأسرع لائاً على السفر (9) .

(9) لا شك أن الخيال الدعائي لعب دوراً كبيراً في تصوير الكيفية التي تم بها لقاء عبد المؤمن بن علي بشيخه ابن تومرت ، وأقرب الروايات إلى القتل ما ذكره ابن القطان في نظم الجمان من أن طلبة تلمسان لما توفي شيخهم عبد السلام التونسي دفن في قرية العباد جوار الشيخ أبي مدين العوث ندبوا رفيقهم عبد المؤمن للدعاب إلى المشرق بقصد استخدام ابن تومرت الذي تلمسان ليحل محل شيخهم المتوفى في تدريس العلم بها ، وقد كان خبره بلغ إليهم ، فخرج عبد المؤمن مع عمه بقصد الحج واستقدام الفقيه ، فلقياه بملاة عائداً من المشرق فاستطحا وعدل عبد المؤمن عن مواصلة السفر للحج ، وعاد مع شيخه لا إلى تلمسان ليأخذ بها مع رفاته عنه العلم ولكن إلى جبال المصائدة بأقصا المغرب لبيت معه الدعوة ويتولا بعده الملك !

باب نذكر فيه

اتصال الخليفة بالامام المهدي رضي الله عنهما

اعلم يا أخى أنه لما جد السير نحو الامام اجتمع مع الطلبة في طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد ، فرفع المعصوم رضي الله عنه رأسه فواقفه أمامه ، فقال له : ادخل يا شاب فدخل ، فأراد أن يقعد في جملة الناس ، فقال له الامام المهدي المعصوم رضي الله عنه : ادن يا شاب ، فلم يزل يدنو من الامام والمعصوم يقربه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما اسمك يا فتى ؟ فقال : عبد المؤمن فقال له المعصوم : وأبوك علي ؟ فقال نعم ! فتعجب الناس من ذلك ، فقال له يا شاب من أين إقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان ، من ساحل كومية ، فقال له المعصوم من تاجرا (10) أم لا ؟ فقال له نعم ، فزاد الناس تعجبا ، فقال له المعصوم رضي الله عنه أين تريد يافتا ؟ فقال ياسيدي نحو المشرق التمس فيه العلم ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب . فلما انصرف الناس من القراءة أراد الخليفة أن ينصرف ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : تبئت عندنا يا شاب ، فقال له : نعم يا فقيه ، فبات عندنا فلما جن الليل ناداني المعصوم : يا أبا بكر ، ادفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر ، فدفعته له وقال لي : اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعنه يقول : لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين ، فبكا الخليفة عند سماع هذا القول ، وقال يا فقيه ما كنت في شيء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي ، فقال له المعصوم : إنما

(10) ما زالت قرية تاجرا معروفة باسمها الى اليوم ، وهي موجودة بتراب قبيلة بني عابد المستقرة على ساحل البحر الى الشمال الشرقي من مدينة ندرومة وغربي نهر الفناء (تافنا) .

تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك ، ثم دفع له الكتاب وقال طوبا لأقوام كنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك الله لك في عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر ، ثم قال لي المعصوم رضي الله عنه يا أبا بكر : ناد الصبيان للورد يقومون يأخذون حزبهم ، فلما أقبلوا ناداهم فقال لهم إنما الله إله واحد ، والرسول حق ، والمهدي حق ، فاقروا حديث أبي داود تعرفوا الأمر ، وعليكم بالسمع والطاعة لربكم ، والسلام . فآخذوا وردهم وقرأوا حزبهم ، فلما أصبح أقبل يعلو عم الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه ، وقال له يا عبد المؤمن حبستنا حتى تقلع المراكب ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : العلم الذي يريد اقتباسه بالمشرق قد أتاه بالمغرب ، فاترك الأمر على مراد الله والامام .

وكان يقرأ على الامام المعصوم رضي الله عنه وكان أفهم الطلبة ، وكان إذا أراد النوم يقول له المعصوم رضي الله عنه كيف ينام من تنتظره الدنيا ، فلم يزل على تلك الحال أشهرا ، فلما كان يوم من الأيام أقبل رجلان يريدان المشرق : اسم أحدهما عبد الله بن عبد العزيز ، والآخر عبد الصمد بن عبد الحلیم ، فقال لهما الامام رضي الله عنه من أين أقبلتما أيها الرجلان ؟ قالا من بلاد المغرب ، ولما وصلا بقيا باهتتين ، فقال لهما الامام المعصوم رضي الله عنه ما لكما لا تتكلمان ؟ فقالا له نحن ما نفهم العربية بلساننا ، وقالوا له يا فقيه ، وصلنا من درن (11) من تينملل (12) فسألنا في قولنا ، ودعا لهما وسارا ، فلما أمسا المساء قال لنا : عولوا على السير نحو المغرب إن شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله .

(11) جبال الأطلس .

(12) قرية واقعة بتراب بطن فرغوسة أحد بطون قبيلة كنة (وكنت) الكندافية ، على بعد كلم واحد من الطريق الداهب من مراکش الى رودانة (الكيلومتر 104) ، بها قبر المهدي وخليفته عبد المؤمن بن علي وأطلال مسجد عظيم .

باب نذكر فيه

الخروج من ملالة وسير المعصوم نحو الغرب

إعلم أنه لما أراد الامام السير نحو المغرب دعا براحل والدة يريجن بن عمر المكنى بعبد الواحد الشرقي ، وقال لها ياراحل ، تتركين ابنك عبد الواحد يسير معنا ؟ فقالت له يافقيه ، هو معك إذا أراد أن يسير يسير ، فقال لها ياأمي أسير معهم ، فقال لها المعصوم : له في هذا خيرة ، فقالت له : يسير حيث ما حملته ، فقال لها : ياراحل اتركي لنا الدابة تحمل الأسقاط ، فدفعنا لنا فلو شهباء بيضاء البطن ، فلما وصلت قال لي المعصوم ياأبا بكر خذها ، فأخذتها فكنت أخدمها ، فخرجنا حتى وصلنا متيجة ، فلما نزلنا بها ، قال لي عبد المؤمن بن علي الخليفة أمير المؤمنين أتعرف دواء للمشق (13) فقلت له يامولاي والله لا أعرف له دواء ، فلما أصبح سرنا فكان الخليفة يتأخر وكان الامام المعصوم يقول له سر يا عبد المؤمن ، فقلت للمعصوم إنه مشق ، فقال المعصوم يا عبد الواحد ركب أخاك وامش ، فلما سمعه هاب ، فرد المعصوم رأسه إليه وقال له إركب ، فركبه فأطرق عبد الواحد برأسه إلى الأرض ، فقال له الامام يا عبد الواحد طيب نفسك ، فلقد يجازيك عليها بالنصور المشيدة والجوارى المزينة والخيول المسومة ، وكان مبيتنا في متيجة عند جبارة بن محمد ، وأعطاه الامام خط يده ، وعند الفقيه أبي زكريا ، ثم خرجنا من عنده نحو الأخماس ، فلما دخلنا الأخماس وجد فيه المعصوم مسجداً مهدوماً فأمر ببنائه فبني .

(13) تحرق الركبتين والركبتين من كثرة احتكاكهما أثناء المشي .

ثم منها نحو كساس ن وممرور فوجد بها مسجداً معطلاً فأمر بعمارتها فعمر ، ثم منها نحو مليانة ، ثم منها نحو وانشرش ، فنزلنا بالحضرة (فوجدنا بها عبد الله بن محسن الوشرشي المكنى بالبشير (14) ثم منها نحو تينملت متاع بنى يزناسن فأمر المعصوم ببناء مسجد ، وهم بنو يزناسن متاع تنس (15) ثم قمنا منها وبتنا بشلف عند الفقيه أبي الربيع ، وكتب له الامام خط يده وأكرمونا غاية الاكرام ، ثم منها نحو البطحاء ، ولما أشرفنا على البطحاء قطع بنا إنسان يقال له يوسف بن عبد العزيز ، وقال سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، سألتكم بالله العظيم إلا ما سرتكم معي ، فان قلبي طاب عليكم ، فقال المعصوم سيروا معه لا تفسدوا عليه خاطره ، فلما نزلنا عنده قال سألتكم بالله العظيم لا تفسدوا علينا سيرتنا ادفعوا لنا من يختار ضيافتكم من الغنم ، فقال المعصوم لعبد المؤمن سر معي ، وقال لي مررت معي ، فسرت معي حتى وصلنا الغنم ، فاختار كبشاً عسلياً أقرن ، فلما كان من الغد قال باسم الله العظيم اختاروا كبشكم ، فقال الامام المعصوم سيروا معي فأتينا نحو الغنم ، فأخذنا كبشاً أكحل العينين فأتيناه به فذبحه ، فلما كان اليوم الثالث سرت معي واخترت كبشاً عسلياً مثل الأول ، وقال الامام المعصوم في اليوم الثالث هل رأيتم أكرم من هذا الرجل ؟ يا شيخ ما اسمك وما اسم أبيك ؟ فأعلمه ، فكتب له المعصوم خط يده ، وقال أعطني جلدأ فدفع له جلدأ من مزود ، فأخذ المعصوم وجعل له حرزاً وقال له يا شيخ امسك هذا عندك ، فان مت يكون عند بنيك فانه خير لك ولعقبك حتى يصل الى هذا الموضع ملك وعسكر فادفع البراءة من يدك ليد الملك ولا تعطها أحداً غيره ، فقال له نعم ، فارتحلنا ، فلم نزل نجد السير حتى وصلنا تلمسان بالعافية .

(14) عبد الله بن محسن البشير الوشرشي ، من أهل المغرب الأوسط ، لقي المهدي أثناء مروره بجبال وشرش عندما كان راجعاً من رحلته الشرقية الى وطنه فاعجب به وتلذذ له وتبعه وصار من خواصه ، ولما بدأ المهدي تنظيم حركته كان من العشرة الذين سارعوا الى بيعته ، وصار بذلك من أهل الجماعة العشرة الذين كانوا بمثابة حياة تنفيذية لها ، وأناط به المهدي كثيراً من المهام أثناء نضاله ضد المرابطين ، فقاد عليهم عدداً من الحملات ، وتولا تمييز الموحدين وفقد في وقعة البحيرة بابواب مراکش التي هزم فيها المرابطون الموحدون يوم السبت 12 أبريل 1130 (2 جمادى الاولى عام 524 هـ) .

(15) مدينة ساحلية بين الجزائر ووهران ، كثيراً ما يغلب النساخ في رسمها فيكتبونها تونس .

باب نذكر فيه

دخول المعصوم تلمسان

إعلم يا أخى أنه لما دخلنا تلمسان نزلنا بأكدير (١٦) عند ابن صاحب الصلاة ، ولما دخل المعصوم تلمسان وجد بها عروساً تزف لبعلها وهي راكبة على سرج واللهو والمنكر أمامها ، فكسر الدفوف واللهو وغير المنكر وأنزلها عن السرج ، فالتزم الطلبة المذاكرة للإمام المهدي الذين منهم أبو العباس الشريف ، ومحرز بن يوسف التونسي ، وعلي بن صاحب الصلاة ، وابن جبل ، وعثمان بن صاحب الصلاة ، ويحيى بن يافطين الكزولي ، وعبد الرحمان الورتندي ، وعلي بن سليمان الكومى ، وعبد الرحيم ومحمد ابن عبد الرحمان المديوني ، فرأوا ما لا يطيعون ، فلما كان يوم من الأيام طلع المعصوم بين الصخرتين ونظر يمينا ويساراً فقال ما اسم هاذ الميا ؟ وما اسم هاذ الوطاء ؟ وما اسم هاذ الموضع ؟ فعرفه أن اسمه كذا وكذا ، فقال لهم بين أظهركم هنا طالب ينزل بمحلته هناك فى الميا ويسمع ضجيجها من هاذ الموضع ، ثم رجع إلى المدينة وقال نسير غداً إن شاء الله على بركة رسول الله .

باب نذكر فيه

ارتحال المعصوم من تلمسان

إعلم أن المعصوم لما خرج من تلمسان جد بنا السير حتى نزلنا وجدات (٧١) وكان بها ابن سامنين وقاضيه محمد بن فارة ، فنزلنا عندهما

(١٦) أكدير : اسم الأحياء السفلا من تلمسان ، ما زالت تدعى كذلك الى اليوم ، بها المسجد الذى بناه الامام ادريس بن عبد الله الكامل مؤسس الدولة الادريسية المغربية .

(١٧) وجدات ج وجدة المدينة المغربية الشهيرة ، كانت فى بدايتها تكون من عدة قرا منفصلة عن بعضها بأسوار فكانت تدعى بسبب ذلك وجدات ، ولما ضمت القرا المذكورة الى بعضها وصارت مدينة واحدة دعت وجدة بالافراد .

فأقبل الفقهاء يهرعون نحو الامام المعصوم الذين منهم زيدان ويحيى البيرنانى ويوسف بن سمغون ، وعبد العزيز بن يخلفتن السوسى ، فكان المعصوم يأمرهم أن يأمرؤا بالمعروف وينهؤا عن المنكر ، فلما خرج فى اليوم الثانى نظر إلى النساء يستقين والرجال يتوضؤون ، فقال أليس هاذ منكرأ ، النساء مع الرجال مخلوطين ، إصنعوا لنا ساقية وصهريجاً عند الجامع ، ففعل ذلك ، فلما فعل أمرنا المعصوم بالسير ، فجده بنا السير حتى وصل صاء (١٨) ، فلما دخل صاء نظر النساء مزينات محليات يعين اللبن فقطا المعصوم وجهه حتى جازهن ، وكان الفقيه يحيى بن يصلين حاضراً فقال له الامام كيف تترك النساء محليات مزينات كأنهن قد زففن لبعلهن ، أما تتقون الله فى تغيير المنكر ، لا سبيل لهم لما يصنعون ، فانما يصنعون أفعال الجاهلية الأولا ، وإنما يخالفون الله فى أفعالهم ، هلا اعتبروا قوله تعالى : (وقل للمؤمنات يفضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها) الآية ، فغير المنكر وأمر بالمعروف وسار نحو أكرسيف (١٩) وكان بها يومئذ عمر ابن تاكرطاست والحاج التكرورى ، فنزل بها المعصوم عند حلي وأخيه الحسن ابني أبى تجارة وغيرهما ومحمد بن تاسكورت ودحمان بن منينة ، وعلي بن محمد الزناتى ، ويوسف المواسى ، فأمرهم المعصوم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، فسمع يوماً من الأيام أن رجلا صلب حياً فخرج اليهم وبدد شملهم ، وقال لأي معنا يصلب الأحياء ؟ إنما الصلب للأموات إن كان وجب عليه الموت فاقتلوه وبعد ذلك اصلبوه فلما رأوا السوقة أنه يأمر بالمعروف وينها عن المنكر أقبلوا نحو الامام المعصوم ، وقالوا له يا فقيه إجعلنا بينك وبين النار حجاباً ، فقال لهم المعصوم فيماذا ؟ قالوا له قتلت نعمة للوزير فهو يغرمنا فيها ألف مثقال ، فقال لهم نعم ، ثم إن المعصوم سار عند يحيى بن فانو ، فأعلمه بذلك ، فقال له والله يا فقيه ما عرفت ذلك ، فأمر الوزير أن يغرم ما أخذ من الناس من المظالم وأراد

(١٨) صاء : هى قرية تاويرت الحالية ، وهى واقعة على وادى زا الذى ينطق زاية منلقاً بين الزاى والصاد .

(١٩) هى قرية كرسيف الحالية الواقعة على نهر ملوية فى الطريق بين وجدة وتازة .

قتله ، فقال له المعصوم ما عليه قتل ، إنما عليه الأدب فأمره ورد المظلمة ونادا المنادى يأمر يحيى بن فانو من ظلمه الوزير فليصل ينصف وحسيب من تقلد الله ، فلما وصا المنادى طرف المدينة نادا أن لا سبيل لمن يغرم في النعمة شيئاً إلى الأبدن .

وأمر بالمعروف فيهم ونها عن المنكر ، وقال من غد خذوا على أنفسكم نسير إن شاء الله ، فلما ساروا جدوا حتى أشرفوا على أمليل (20) فقال المعصوم ما اسم هذا الموضع ؟ قالوا له أمليل ، فرد المعصوم يده للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، وقال له اعقل على هذا الموضع ، لا بد لك أن تركز عليه إن شاء الله .

ثم جددنا السير حتى وصلنا لدشر قلال (21) ، فنزلنا فيه بالمسجد ، فسمع المعصوم بالدشر للهو وصراخ الرجال والنساء ، فقال غيروا هذا المنكر ، وأمرهم بالمعروف ، وأشار المعصوم بيده للحاج الدكالي وعبدكم الفقير لله ولكم ، فقمنا حتى وصلنا إليهم ، فقلنا لهم قد حرم الله والمنكر لأنه من أفعال الجاهلية ، وما كفا أن الرجال والنساء معاً لا فرق بينهم ؟ فقالوا هاكذا السيرة عندنا ، فأمرناهم بالمعروف فلم يسمعوا ونهيناهم عن المنكر فلم ينتهوا فأعلمنا المعصوم بذلك وقلنا لهم يأمركم الفقيه بالمعروف فقالوا معروفنا عندنا ومعروفكم عندكم ، سيراً ، وإلا نمثل بكم وبفقيهكم ، فأعلمنا المعصوم بما قالوه ، فقال المعصوم يا أبا بكر جهّز الدابة وألق عليها الكتب ، وسيروا عنهم لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم ، فمشينا حتى وصلنا من ليلتنا مخاض النساء فلما وصلنا الفج رد المعصوم رأسه للخليفة وقال له اعقل على هذا الموضع إذا كان رجوعك عليه وساراً ، بكلام ، فاقمنا فيه حتى طلع الفجر وصلينا الصبح ومشينا للمقدمة فنزل المعصوم بها عند عبد الله الفقيه ، ومنها نحو عين الرقي عند ابن مضكود ، وكان الطلبة يهرعون إليه من كل جانب ومكان ، ثم خرجنا نحو فاس في أمن ودعة وبركة من الله .

(20) قرية بطن أهل السدس من قبيلة غيانة ، واليهما إضافة وادي أمليل .

(21) لعله الدشر المعروف اليوم بعين بوقلال الواقع بتراب قبيلة مكناسة على الطريق الذاهب من تازة إلى أكبول .

باب نذكر فيه

دخول المعصوم فاساً ونزوله بها

إعلم أسعدك الله سعادة المقربين أنه لما دخل المعصوم فاساً نزل بها بمسجد ابن الغنام ، ثم رحلنا منه لمسجد (ابن الملجوم) ، ثم منه لمسجد يعرف بطريانة ، لأنه كان في الصومعة بيت ، وكان المعصوم يعمره ويقرى فيه العلم ، وكانت طلبة فاس يهرعون إليه من كل مكان ، ويتصايح بعضهم لبعض يقولون تعالوا بنا للفقيه السوسي الذين منهم علي بن الملجوم ، وأخوه أحمد ، وابن أبي داود ، وأحمد بن دبوس ، وعبد الرحمان بن الشكة ، وأحمد بن بيضة ، وابن أحمد ، وعبد الرحمان الشريف ، وابن مسولة ، وابن برقوقة ، وعبد الرحمان بن زكور ، وابن الغرديس ، ويوسف ابن المغيلي ، وأحمد بن يعبد راسه ، هؤلاء الذين كانوا ملازمين الامام المعصوم يأخذون عنه العلم ويذكرونه فيما عندهم من المحفوظ ، فكان المعصوم يفهمهم ويفهمهم ، وكان المعصوم يمشي ويلقا الصغار إذا خرج ويرونه ويتعلقون به ، فكان يمر يده المباركة على رؤوسهم ويقول لهم أسعدكم الله ، أي زمان تدركون يا بني .

فلما كان يوم من الأيام دخل علينا المعصوم وقال لنا أين الصبيان ؟ فقلنا هنا نحن حاضرون ، قال ما منكم أحد غائب ، قلنا كلنا حاضر ، فقال المعصوم اخرجوا واقطعوا مقارع من شجر التين الذي أسفل الوادي الذي لا ينتفع به وأقبلوا بسرعة ، وكنا في سبع نفر أولنا الخليفة عبد المؤمن بن علي ، وعبد الواحد ، والحاج عبد الرحمان ، والحاج يوسف الدكالي ، والعبد الفقير أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيضي ، وأمر بن علي ، وعبد الحق بن عبد الله ، وكانوا يقرأون على المعصوم ، فخرجنا السبعة وأقبلنا بسبعة مقارع من ذكار التين ، فقال لنا أخفوا مقارعكم وسرنا معه وما علمنا أين يتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة ، قال لنا تفرقوا على الجوانيت ، وكانت الجوانيت